

النشرة

تصدرها مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

العدد ١٢ / ١٩٩٩

الأحد ٢١ آذار

الأحد الرابع من الصوم

(أحد يوحنا السلمي)

تذكار أبينا البار يعقوب المعترف

اللحن الثامن

إنجيل السحر الثامن

الرسالة (عبرانيين ٦ : ١٣ - ٢٠)

الإنجيل (مرقس ٩ : ١٧ - ٣١)

+ البار يعقوب المعترف

تعيّد الكنيسة المقدسة في الحادي والعشرين من آذار لتذكار البار يعقوب المعترف أسقف نصيبين، الذي جمع بين النسك والتقشف والدفاع عن الإيمان خلال فترة رعايته خراف نصيبين الناطقة، ولذلك دعي حقاً باراً ومعتزلاً.

ولد يعقوب في أواخر القرن الثالث في مدينة نصيبين الواقعة على حدود الإمبراطورية الرومانية من جهة الشرق، قرب الحدود الفارسية. أظهر منذ طفولته ميلاً نحو الإلهيات وازدراء والارضيات الفانيات، حتى انه لما صار شاباً هجر العالم وانفرد في القفر مهتماً بخلص نفسه. ويقول ثيودوريتوس أسقف قورش، كاتب سيرة حياته، ان يعقوب كان

يطوف أعالي الجبال والاحراش في الصيف والخريف دون مأوى أو غطاء، وفي الشتاء والربيع يلتجئ الى الكهوف. وكان طعامه من أثمار البرية، ولباسه المسح مع عباءة خشنة. أما طعامه الروحي فكان الصلوات والأصوام والتأمل في الحقائق الإلهية، مروّضاً عقله ومطهّراً حواسه ليصل الى اتحاد كليّ بالله. كان يثق بالله الى المنتهى وكان الرب يعينه، وقد أنعم عليه بموهبة صنع العجائب والتنبؤ بالمستقبلات، حتى ذاع صيته وألزم بقبول درجة الكهنوت. بعد سيامته مضى الى بلاد العجم لتثديد المسيحيين الجدد، إذ كانوا محاطين بالمخاطر الكثيرة بسبب إيمانهم، والاضطهاد ما زال يلاحق المؤمنين. كان يعقوب خير مرشد ومشجعّ ومعلّم للإيمان، وكان الله يعمل من خلاله العجائب الباهرة فانجذب عدد كبير من عبدة الأوثان الى الإيمان القويم.

نجاحه في بلاد العجم دفع أهل بلده نصيبين الى المطالبة به أسقفاً عليهم. قبل دعوة الله له لكنه حافظ على عيشة النسك ولبس المسح وأكل الثمار البرية والنوم على الأرض العارية. كان مثلاً للأسقف الراعي الصالح. اهتم بالفقراء والأرامل والأيتام والمظلومين ودافع عن الحق متمماً وصية الراعي الصالح الأول الرب يسوع المسيح. وبمقدار تفانيه كان الله ينعم عليه بالموهب واجتراح العجائب. كان لا يجادل الناس ويترك العقاب لله. ويحكى أن أحدهم تظاهر بالموت لدى مرور الأسقف يعقوب فطلب رفاقه مساعدة يعقوب في مصاريف الدفن. أعطاهم دون تردد، ولما عادوا وجدوا رفيقهم ميتاً، فعادوا الى يعقوب يتوسلون له لأنهم أخطأوا وكذبوا. وبخهم وجنّهم على التوبة وتضرّع الى الله من أجل رفيقهم فعاد حياً.

اشترك الأسقف يعقوب في أعمال المجمع المسكوني الأول الذي انعقد عام ٣٢٥ في نيقية للدفاع عن ألوهة الابن ضد آريوس، واطهر شجاعة فريدة في دفاعه. وعام ٣٢٦ كان في القسطنطينية عندما انخدع الملك قسطنطين باعتراف إيمان ملتبس قدّمه له آريوس، اجبر بطريك القسطنطينية ألكسندروس على قبول آريوس في الشركة. حاول يعقوب والبطريك إقناع الملك بخطاه لكنه رفض. فلجأ يعقوب الى الصلاة والصوم مدة أسبوع كامل. ويوم الأحد فيما كان آريوس متوجهاً الى الكنيسة ليتمّ قبوله، اضطر ان يدخل الى مكان لقضاء حاجته، وهناك قذف من جوفه امعاه جميعها ومات أشنع ميتة. فأنقذ الله الكنيسة بصلوات يعقوب والكسندروس.

عام ٣٥٠ حاصر سابور ملك الفرس مدينة نصيبين مدة سبعين يوماً ولم يستطع دخولها بسبب سورها المنيع. فأمر أن يُبنى سد في النهر ال اي يمرّ قرب المدينة بحيث تعالت المياه كثيراً، ثم أمر بأن يهدم السد فتدفقت المياه بقوة كبيرة هدمت سور المدينة وظن الجند أن المدينة سقطت. انتظروا جفاف المياه كي يدخلوا المدينة لكنهم صعقوا إذ شاهدوا سوراً آخر

وراء السور المهذوم بناه المؤمنون بتشجيع من يعقوب الذي تضرّع الى الله ليعينهم في عملهم. انذهل سابور فشاهد رجلاً بصورة ملك يشعّ منه النور، واقفاً فوق السور. ظنة الإمبراطور الروماني فأخذ يرميه بسهامه ولم يعلم انه إله المسيحيين الذي يدافع عن شعبه المؤمن. حاصر سابور المدينة مدة سبعة أسابيع أخرى حتى توّسلّ الشماس افرام الى يعقوب أن يلعن سابور وعسكره، فرفض أن يلعن أحداً والتجأ الى المراحم الإلهية لتتأف بالثعب وتخلّصه بوسائلها.

صعد الى السور ورأى جحافل الجند والخيول والفيلة فتوّسلّ الى الله أن يسلطّ عليها البرغش. استجيبت طلبته فهربت الخيل والفيلة وداست العسكر، فهرب هؤلاء تاركين المدينة بسلام. عاش الأسقف يعقوب بعدها فترة وجيزة ورقد بسلام تاركاً وراءه أعماله الصالحة. أمر الملك أن لا يدفن جسده الطاهر خارج المدينة كما كانت العادة، بل دفن بإجلال داخل المدينة ليكون جسده حافظاً لها في مماته كما كان في حياته. ولم يبخل الله على الشعب فكانت بقايا جسده تفيض الاشفية والعجائب على المؤمنين وكان جسده أتمن الكنوز. فبشفاعته اللهم ارحمنا وخلصنا آمين.

+ قانون القديس إنديراوس الكريتي

لقد رتب الآباء القديسون أن يُقرأ يوم الخميس من الأسبوع الخامس من الصوم الكبير، إما ضمن صلاة السحر أو خلال صلاة النوم الكبرى، قانون التوبة الكبير لكاتبه القديس إنديراوس أسقف كريت الذي عاش في القرن السابع، كما يُقرأ في الأسبوع الأول من الصوم نفسه موزعاً على اربعة أيام وخلال صلاة النوم الكبرى. هذا العالم، ولسبب وقوع عيد بشارة والدة الإله يوم خميس، سوف يسبق موعد قراءته الى مساء الثلاثاء ضمن صلاة النوم.

يتألف هذا القانون من تسعة مقاطع تسمى أودية، يتألف كل منها من عدد كبير من الترانيم القصيرة، مجملها مئتان وخمسون ترنيمية، تفصل بينها اللازمة " إرحمني يا الله ارحمني " مع سجدة ورسم إشارة الصليب.

يعبر هذا القانون عن البعد الحقيقي للصوم وهو التوبة، إذ يبرز بشكل واضح هدف الفترة التي نحن فيها: عودتنا الى الله. هذه هي التوبة، أن نغيّر مسار حياتنا ونندم على افعالنا الخاطئة ونقرر تبديل مسيرتنا وتوجيهها نحو الله.

في هذا القانون نجد تعبيراً عن حزننا الشخصي على الخطايا التي اقتترفناها وانعكاساً لحس البشرية العميق بخطيئتها: " أيها المسيح، من أين ابتدئ أنوح على أفعال عمري الشقي، وأيما ابتداء أضعه للمناحة الحاضرة. لكن بما أنك متحنن، هبني صفح الزلات".

ولكي يساعدنا على التوبة يكشف لنا هذا القانون الخطيئة عبر استعراض قصة الكتاب المقدس التي هي قصة الخطيئة والتوبة والمسامحة، فنراه يستعرض تاريخ الخلاص المدون في العهدين القديم والجديد ويطبّق مختلف صورته على حالة نفس كاتبه ونفسنا الخاطئة، أي يجعلها قصتي أنا: ادم وحواء، الجنة والسقوط، قايين وهابيل، إبراهيم وإسحق ويعقوب، نوح والطوفان، سلم يعقوب وصبر أيوب، داود وسليمان، المسيح والكنيسة: "يا نفس لقد استحضرت لك نماذج الكتاب لتفودك للتخضع"، ويحث المسيحيين على تجنب مصير هؤلاء الخاطئين: "لقد شابته بالمعصية آدم أول الجبله فعرفت ذاتي متعرياً من الله ومن الملأك والنعم الابدي بسبب خطاياي"، وفي المقابل يعرض لهم أخبار الصالحين ويدعوهم للتشبه بهم:

"يا يسوع، انني لم أشابه عدل هابيل، ولم أقدم لك قط قرابين مقبولة، ولا أفعالا إلهية لائقة بالله، ولا صحة طاهرة، ولا سيرة غير مذمومة" (من الأودية الأولى)

يشدد القانون على اتكالنا على رحمة الله. ان توبتنا مهمة لخلاصنا، لكن أعمالنا لا تكفي وحدها لأن الخلاص هو المنحة المجانية التي أعطانا إياها الله عبر الذبيحة الطوعية لابنه الوحيد ربنا يسوع المسيح: "أيها المسيح الكلمة، انك بذلك جسديك ودمك عن الكل لما صلبت، فجسدك منتهلكي تعيد به جبلتي، ودمك لترحمني به، وأسلمت روحي لكي تدخني الى والدك."

في آخر كل أودية عدد من القطع المخصصة للقديسة مريم المصرية التي ربيت الكنيسة ان يقام تذكاري سنوي خاص بها في الأحد الخامس من الصوم، أي بعد ثلاثة أيام من قراءة هذا القانون، لأنها النموذج الأمثل للتوبة ولقبول الله التائبين، إذ يجب أن يعي المؤمن، وهذا ما يشدد عليه القانون، ان الله بانتظار من يتوب لكي يقبله: "يا مريم لما كنت غارقة في لجة الشرور بسطت ذراعيك نحو الإله الرؤوف، لذلك مد نحوك يد معونة بمحبته للبشر كما مدها لبطرس، مؤثرا توبتك بالكلية" (من الأودية الثانية).

يبقى أن نذكر أن القديس إندراوس ولد في دمشق سنة ٦٦٠، ويقال انه كان أبكم حتى عامه السابع، وعندما تناول القديسات حلت عقدة لسانه. في الخامسة عشرة من عمره قصد أورشليم وانضم الى رهبنة القبر المقدس. عام ٦٨٥ إنتقل الى القسطنطينية حيث سيم شماسا، وعام ٧٠٠ سيم أسقفا على غورثينا في جزيرة كريت، وكان من المدافعين عن العقيدة القائلة بمشيئتين إلهية وبشرية في يسوع المسيح. رقد بالرب عام ٧٤٠ وتعيد له الكنيسة في الرابع من تموز.

+ الصوم ومكانته في الحياة الروحية

للصوم مكانة خاصة متميزة في الحياة الروحية عامة. نلمس ذلك من مسلك رجال الله في العهدين القديم والجديد ، ومن اقوالهم. يؤكد كل ذلك تكريم الرب يسوع للصوم، سواء بممارسته له أو بأقواله عنه. وفي رأي بعض القديسين أن جهاد الصوم ينبغي أن يتقدم كل الجهادات الأخرى في الحياة الروحية، لأنه هو الذي يمهّد لها الطريق، فما لم يُخضع الجسد ويُلجَم ، يجد الإنسان نفسه مشدوداً برباطات كثيرة تعوقه عن الانطلاق الروحي: وفي ذلك يقول القديس اسحق السرياني " كل جهاد ضد الخطيئة وشهواتها يجب ان يبتدىء بالصوم، خصوصاً إذا كان الجهاد بسبب خطيئة داخلية ... إن أول وصية وضعت على طبيعتنا في البدء كانت ضد تذوق الطعام، ومن هذه النقطة سقط أول جنسنا. لذلك فإن أولئك الذين يجاهدون بخوف الله يجب أن يبدأوا البناء من حيث كانت أول سقطت. إن مخلصنا الصالح، حينما أظهر نفسه للعالم عند الأردن، ابتداءً من هذه النقطة. فحينما اعتمد قاده الروح الى البرية مباشرة وصام أربعين يوماً وأربعين ليلة. وكل الذين يريدون أن يتبعوا خطواته، عليهم أن يضعوا أساس جهادهم على مثال عمله " (القديس اسحق السرياني).

+ الصوم في العهد القديم

لقد أوصى الله آدم ألا يأكل من شجرة معينة فأكل. وفي ذلك يقول القديس يوحنا الذهبي الفم " لما أبدع الله الإنسان الأول سلّمه وصية الصوم ليضبطه ويهتم بخلاصه كأب محبّ لأولاده بقوله لأدم " من كل ثمر شجر الفردوس تأكل، أما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها البتة". أفليس هذا شكل من أشكال الصوم؟ فإذا كان الصوم في الفردوس ضرورياً، فكم بالحريّ تكون ضرورته خارج الفردوس؟ إن معونة الصوم ضرورية جداً لنا، ولو سمع آدم هذا الصوت من الله وأطاعه، لما سمع بعده الصوت الثاني " إنك تراب والى التراب تعود " (تك ٣ : ١٩). والعهد القديم مليء بالأمثال والأقوال عن الصوم. فموسى النبي بعدما صام أربعين يوماً، استحق أن يعاين الله ويخاطبه بدالة، ويتقبّل من يده الناموس المكتوب. وبعد ان صام إيليا مدة أربعين يوماً عاين الله وأقام موتى وفتح السماء. كذلك فقد أبطلت استير بلصوم سخط الموت عن شعبها. ودانيال كان عاكفاً على الصوم حين تراءى له الملاك جبرائيل وكشف له أسرار الله. ويهوديت كانت تصوم كل أيام ترمّلها حتى أنها وضعت على حقويها مسحاً. أما نحميا فلما سمع أخبار إخوته الذين في أورشليم المنهدمة أبوابها والمحروقة بالنار، ناح وصام وصلى أمام الله. أما داود النبي والملك فقد تحدث بشكل وافر في الصوم فقال " أدللت باصوم نفسي " (مز ٣٥ : ١٣)، ويضيف " ركبتاي ارتعشتا من الصوم ولحمي هزل عن

سمن " (مز ١٠٩ : ٢٤). حتى آخاب الملك الشرير، حالما سمع كلام إيليا عما سيحلّ به وببيته من مصائب " شق ثيابه وجعل مسحاً على جسده وصام واضطجع بالمسح ومشي بسكوت"، ما جعل الرب يقول لإيليا " هل رايت كيف اتضع آخاب أمامي. فمن أجل أنه قد اتضع أمامي لا أجلب الشر في أيامه بل في أيام ابنه أجلب الشر على بيته " (١ ملوك ٢١ : ٢٧-٢٩). وقد تكلم الرب بلسان أشعيا النبي عن الصوم المقبول وشروطه وبركاته. وقال له " ناد بصوت عال. لا تمسك. ارفع صوتك كبوق وأخبر شعبي بتعدّيتهم وبيت يعقوب بخطاياهم... أمثل هذا يكون صومٌ أختاره " (أش ٥٨ : ١ و٢ و٥). واضح من كلام الرب أنه يدهو الى الصوم لأن خطيئة بني إسرائيل كانت لأنهم لم يراعوا شروط الصوم.

أما عن الأصوام الجماعية فأماننا نموذج عجيب في صوم شعب مدينة نينوى، وصم بني إسرائيل في حربهم مع بني بنيامين، وصوم الشعب أيضاً زمن صموئيل النبي. وقد نادى يهوشافاط الملك بالصوم في كل يهوذا عندما قام عليه المؤابيون والعمونيون. كذلك نادى عزرا في طريقه الى اورشليم في كل الشعب الذي معه بصوم، قائلاً: " وناديت هناك بصوم... فصمنا وطلبنا ذلك من إلهنا فاستجاب لنا ".

+ الصوم في العهد الجديد

لم يبطل الصوم في المسيحية، بل إن الرب يسوع نفسه أظهر لزومه وفاعليته لحياة كل المؤمنين باسمه حينما صام أربعين يوماً وأربعين ليلة. قطعاً لم يكن الرب في حاجة الى أن يصوم لكنه صام عن البشرية، أو صامت البشرية فيه باعتباره آدم الثاني. لقد قدّم ذاته لنا مثلاً في ذلك كما في أشياء أخرى كثيرة، حتى يعلمنا طريق الغلبة والنصر في حروبنا مع أعدائنا. وقد تكلم عن الصوم كموضوع أساسي في عظته على الجبل. وحينما سأله تلاميذ يوحنا " لماذا نصوم نحن والفريسيون كثيراً وأما تلاميذك فلا يصومون" كان جوابه " هل يستطيع بنو العرس أن ينوحوا ما دام العريس معهم، ولكن ستأتي أيام حن يُرفع العريس عنهم فحينئذ يصومون " (مت ٩ : ١٤ و١٥) ثم تكلم عن الصوم في عبارة جامعة حينما قال " هذا الجنس (الشيطان) لا يمكن أن يخرج بشيء إلا بالصلاة والصوم " (مر ٩ : ٢٩). إنها كلمات في غنى عن التعليق لأنها تحوي سرّ الغلبة في جهادنا الروحي، أوضحه لنا رب المجد.

كذلك فقد تكلم كاتب سفر الأعمال عن صوم كنيسة أنطاكية، وفي الطريق الى إيطاليا عندما كان القديس بولس مقتاداً إليها، وهاج البحر جداً حتى فقد مَنْ في السفينة رجاءهم في النجاة، صار " صوم كثير " (أع ٢٧ : ٢١). وقد تكلم القديس بولس في أكثر رسائله عن

الصوم ومن أقواله: " كخدام لله في صبر كثير، في شدائد... في أسهار، في اصوام" (٢ كو ٦ : ٤-٥)

وفي كلام الى الأزواج والزوجات ناصحاً: " لا يسلب أحدكم الآخر إلا أن يكون على موافقة الى حين لكي تتفرغوا للصوم والصلاة ثم تجتمعوا" (١ كور ٧ : ٥).

+ تأمل

لقد نفذت ما أرشدني إليه السيّد فعرفتُ رُوحِي السكينة في الله، والآن أصليّ ليل نهار كي يمنحني الإله تواضع المسيح. آه ! يا لتواضع المسيح هذا... إني أعرفه لكني لا أتمكن من حيازته. إني أعرفه بنعمة الله، لكي لا أستطيع وصفه أو التحدث عنه. أبحث عنه كلوْلة ثمينة متألقة. إن هذا التواضع موافق للنفس وهو أكثر عذوبة من كل الكون. لقد عرفته بالخبرة فلا تتعجبوا من هذا. إن الروح القدس يحيا فينا وينير حياتنا على الأرض ، وهو الذي يمنحنا معرفة الله، ويعطينا أن نحب السيّد، ويحرّكنا للتفكير بالإله، ويغدق علينا موهبة النطق بالكلمة، وتمجيد السيّد، فنتهلل ونفرح بنعمه فينا وعلينا. إن الروح القدس يمنحنا القدرة والقوة لخوض الحرب ضد الأعداء وقهرهم.

وبفضل الاتضاع تلقى النفس راحتها في الله. لكن، وحتى نستطيع الإبقاء على هذه الراحة الاحتفاظ بها، علينا أن نمرّ بفترة تدريب طويلة. نفقد هذه الراحة لأننا لسنا بعد متجذّرين في التواضع. ولقد خدعني الأعداء مرات كثيرة... كنت أفكر هكذا: إن رُوحِي تعرف السيّد، وهي تدرك كم هو صالح وكم يحبنا، فكيف إذاً تأتيني هذه " الأفكار الشريرة؟" ولزمن طويل لم استطع أن ألقى جواباً بل كنت في حيرة ، الى اليوم الذي أنارني فيه السيّد، فعرفت أن الأفكار الشريرة تتأتى من الاستكبار، تعذب راهب مبتدئ من الشياطين، وإذ كانت تهاجمه كان يهرب منها، لكنها كانت تتبعه.

إذا حدث لك شيء ما من هذا القبيل، فلا تخف ولا تهرب، لكن قف مكانك بجرأة، اتضع وقل " ربي يا سيّدي، إرحمني رغم كوني خاطيء كبير " والشياطين ستهرب. لكنك إذا هربت بجبن، فإنهم سيتبعونك الى الجحيم. تذكر أنه في اللحظة التي تهاجمك فيها الشياطين، يكون السيّد أيضاً مراقبك، ليرى إن كنت ستضع عليه رجاءك.

حتى لو رأيت الشيطان بوضوح بحرقك بناره ويسعى الى أسر روحك فلا تخف، لكن ترجى الله بثقة واتكل عليه قائلاً : " أني أسوأ وأشرّ الجميع" والعدو سيبتعد عنك في اللحظة ذاتها.

إذا أحسست بروح شرير يعمل في داخلك فلا تخجل بل اعترف واطلب من الرب،
ومن كل قلبك، روحاً متضعاً، والرب سيمنحك رجاءك بدون أي شك، وذلك بحسب درجة
تواضعك وستحسّ بالنعمة تسري في داخلك، وإذ تتسحق روحك وتتضع حتى الأخير فستجد
السلام الكامل بعد ذلك.

هذه هي الحرب التي يخوضها الإنسان مدى العمر.

تمرّ النفس بتجربة الوهم حتى بعد معرفة السيّد خالقها بالروح القدس، ولكن المهم لها
أن لا تجزع. وإذ تتذكّر حب الله وتعرف بأن حربها مع الأعداء هو بسبب كبريائها، تتضع
وتطلب من الرب أن يشفيها، والسيّد يشفي النفس بسرعة حيناً ، وحيناً آخر ببطء، وبجرعات.
إن التلميذ المطيع الواثق بابيه الروحي، غير المتكل على نفسه، يشفي بسرعة من كل شرّ
يرميه به العدو، أما الذي لا يطيع فلن يصطلح.

القديس سلوان الأثوسي